ثبات عجيب

أف لهذا المنظار ! أزلت عنه التراب والصدأ ووضعته على أنفي بعد طول غيبة ، فعاد يريني من دنيا الناس ما يسوؤني في الكثير مرآه ، وإن كان ليسرني أن أراه ...

ولا يعجبن القارىء من هذا التناقض . فإن عجب فليعجب من هذا المنظار الذي يقع بي على ما يضحك في ذاته وإن كان لخليقاً بأن يستل من النفس كل ما أوصى به الله من صبر . وأكثر ما يريني منظاري ما يتصل بأقوى سبب بالتحمس والمتحمسين . والمصريون كما أعلم وتعلم أيها القارىء الكريم قوم شديدو التحمس سريعو الانفعال ، وإن كانوا رقيق الحاشية أسخياء الطبع سرحى النفوس . فما أسرع ما ينقلب الرجل الذي تمازحه وتمازحك في مثل ارتداد الطرف إلى نمر هائج لا قبل لأحد منك في الحديث . وإننا لنتحمس في كل فصل ... في الشتاء وفي الربيع وفي هذا الحر الذي يزهق النفوس وكثيراً ما يكون التحمس لغير سبب ظاهر ، وهذا عندي أدعى صوره إلى إثارة الضحك كتحمس هذا الذي أريد أن أحدثك عنه ...

هو شاب في نحو الخامسة والثلاثين ، بادي الفتوة ، مهندم الثياب ؛ تطالعك في وجهه لأول وهلة أمارات الجد ، وترى في جلسته ونظراته شيئاً من الصلف والصرامة ؛ وتحس من عضلاته المفتولة وصدره العريض المرتفع أنك أمام مصارع محترف ...

جلس في « المترو » على مقعد في الدرجة الأولى ، ولم يبلغ الزحام في ذلك الصباح ما يبلغه أكثر الأيام من شدة : فالممر بين صفي المقاعد خال من الناس ، والباب إلى الدرجة الثانية لا يقف فيه أحد ... وفي مثل هذه الحال لا يتساهل محصلو الأجرة في أن يركب الراكب حيثما اتفق له ...

وكان صاحبنا يطالع إحدى صحف الصباح ، وكنت على مقعدي تلقاءه ، أنظر إليه من وراء منظاري ، ولست أدري لم ألقى في روعي أني أمام متحمس من طراز عجيب ؟ ... أكان ذلك لما يبدو من صرامته وصلفه ودلائل قوته ؟ أم كان مرد ذلك إلى ما كان يرتسم على وجهه من علامات الاشمئزاز والتفور كلما نقل بصره في الصحيفة من عنوان إلى عنوان ؟ فلقد رأيته لا تتشكل أساريره قط بما يبيء عن ارتياح لشيء مما يقرأ ...

ومهما يكن من شيء فإني شعرت بأني حيال متحمس من متحمسينا الأشداء ...

وجاء محصل الأجرة وهو كهل مخيف يردد لفظيه المتادين : ورق ... تذاكر ؛ ويزيد عليهما بين حين وحين قوله : فلوس ، وينقر بقلمه على ظهور المقاعد أو على ظهر الحشية التي تحمل تذاكره ...

ومشى نحو صاحبنا ، فلما بلغه كان قد بلغ في تدانه قوله : فلوس . وناوله الفتى بطاقة يقرض منها بمقصه خانة فيساوي ذلك قرشاً ونصف قرش ، ولم يكن في البطاقة إلا الخانة الأخيرة فقال محصل الأجرة لصاحبنا « ادفع الباقي » فلم يرد الفتى وعاد إلى صحيفته ينظر فيها كأن لم يحدث شيء .

ونفخ المحصل في زمارته فوقف « المترو » ، واشتد الغيظ بالركاب جميعاً ، وصارت القضية على تفاهتها من قضايا الرأي العام ، ولكن في مجالها الضيق هذا ... وأصر صاحبنا إصراراً شديداً وثبت ثباتاً عجيباً لا يكترث لشيء ! ...

وخطر لأحد الركاب حل سلمي فتقدم بالباقي إلى المحصل ؛ وهنا وثب الفتى من مقعده ينتهر هذا المتدي على كرامته ويطلب إليه أن يضع نقوده في جيبه . ونطق فإذا هو نغم اللفظ ينطق الزاي ظاء والتاء طاء والدال ضاداً ، وكان كلما انطلق منه لفظ تراجع المسكين الذي تقدم بالنقود خطوة وقد رد نقوده لتوه إلى جيبه وأخرج يده يقلبها في الهواء بيضاء من فرط خوفه ، أما المحصل فقد رضي من الغنيمة بالإياب ؛ ونظرت ونظر الركاب فإذا ثلاثة أرباعه في الدرجة الثانية وما بقي منه في الدرجة الأولى ، ولعله كان يتأهب ليغلق من دونه الباب ...

وذكرتني ثورة هذا المتحمس بما كنت أقرأه عن « الدوتشي » إذ كان يرعد في وجه موظفيه ... وجلس هذا « الدوتشي » المصري لا يكترث لشيء ولا يجرؤ أحد أن يكلمه كلمة ... وكم بيننا من أمثال هذا البطل ممن لا يحسبون لأحد